شرح قصيدة ابن نباتة في مدح الرسول

تُعدّ قصيدة ابن نباتة في مديح رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- من أجمل قصائد المديح النبوي التي كتبها الشعراء العرب، وفيما يأتي سوف نقوم بذكر مجموعة من أبيات هذه القصيدة التي كُتبت على البحر الطويل، مع شرح هذه الأبيات:

- **صَحَا الْقَلْبُ لَوْلَا نَسْمَةٌ تَتَخَطَّرُ / / / وَلَمْعَةُ بَرْقٍ بِالْغَضَا تَتَسَعَّرُ**
  وَذِكْرُ جَبِينِ الْبَابِلِيَّةِ إِذْ بَدَا / / / هِلَالُ الدُّجَى وَالشَّيْءُ بِالشَّيْءِ يُذْكَرُ

يبدأ الشاعر ابن نباتة في هذه القصيدة بداية الجاهليين، بداية غزلية كبدايات الأطلال، ومثل بداية كعب بن زهير في قصيدته البردة التي استحضر في مطلعها سعادَ، وهنا يقول الشاعر إنّ قلبه قد صحا على نسمة تمر عليه ولمعة من البرق تضيء له ظلام الحياة، وصحا على ذكر جبين حبيبته البابلية الذي يبدو به الهلال الدجى، فيقول إنه تذكر الهلال عندما رأى جبينها، والشيء فالشيء يُذكر، أي الشبيه يُذكر بشبيهه.

- **سَقَى اللهُ أَكْنَافَ الْغَضَا سَائِلَ الْحَيَا / / / وَإِنْ كُنْتُ أُسْقَى أَدْمُعًا تَتَحَدَّرُ**
  وَعَيْشًا نَضَا عَنْهُ الزَّمَانُ بَيَاضَهُ / / / وَخَلَّفَهُ فِي الرَّأْسِ يَزْهُو وَيُزْهِرُ
  تَغَيَّرَ ذَاكَ اللَّوْنُ مَعْ مَنْ أُحِبُّهُ / / / وَمَنْ ذَا الَّذِي يَا عَزَ لَا يَتَغَيَّرُ
  وَكَانَ الصِّبَا لَيْلًا وَكُنْتُ كَحَالِمٍ / / / فَيَا أَسَفِي وَالشَّيْبُ كَالصُّبْحِ يُسْفِرُ

يتحدَّث الشاعر في هذه الأبيات عن أيامه السابقة وكيف كان يُسقى أدمعًا تنزل على الخدود، وكيف كان يعيش في زمن سلب منه كل جميل وكل بياض، فتحولت السعادة بالنسبة إليه إلى أحلام، ثم يقول إنّ ذلك الزمان قد تغير مع أحبابه، وكل الناس يتغيرون يا عز، وهنا يخاطب الشاعر محبوبته، ثم يشبه الشاعر الصبا بالليل وكان يحلم في ذلك الوقت، وها هو اليوم يتأسف على ضياع صباه، وعلى ظهور الشيب في رأسه كالصبح حين يسفر عن الليل.

- **يُعَلِّلُنِي تَحْتَ الْعِمَامَةِ كَتْمُهُ / / / فَيَعْتَادُ قَلْبِي حَسْرَةٌ حِينَ أَحْسِرُ**
  وَيُنْكِرُنِي لَيْلِي وَمَا خِلْتُ أَنَّهُ / / / إِذَا وَضَعَ الْمَرْءُ الْعِمَامَةَ يُنْكَرُ

ثم يقول إنّ الذي يواسيه هو أنّه يكتم هذا الشيب الذي ظهر في رأسه تحت عِمامته، لكنّ قلبه يدرك أنّه قد ذهب عهد الصبا وتغيرت عليه الحياة فيتحسر دائمًا على ما مضى من عمره، ثم يقول إنّ ليلي ينكرني وأنا أظن أنّه إذا وضع الرجل العِمامة صار نكرة، أي أنه إذا كبر وصار يضع العمامة صار ينكر على نفسه ضياع أيام الصبا.

- **تَنَقَّلَ نُورًا بَيْنَ أَصْلَابِ سَادَةٍ / / / فَمِنْهُ فِي سَمَا الْفَضْلِ نَيِّرُ**
  بِهِ أَيِّدَ الطُّهْرُ الْخَلِيلِيُّ فَانْتَحَتْ / / / يَدَاهُ عَلَى الْأَصْنَامِ تَغْزُو وَتَكْسِرُ

في هذه الأبيات يمدح الشاعر ابن نباتة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ويقول إنّ النبي محمد عليه الصلاة والسلام تنقل كالنور في نسبه من سادة العرب، فهو هاشمي من قريش من نسل عربي عظيم، ثم يأتي على ذكر قصة تكسير الأصنام التي تمت على يد رسول الله عليه الصلاة والسلام في يوم فتح مكة، ويقول: الطهر الخليلي؛ إشارة إلى نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي كسر أصنام الشرك.

- **وَمِنْ أَجْلِهِ جِيءَ الذَّبِيحَانِ بِالْفِدَى / / / وَصِينَ دَمٌ بَيْنَ الدِّمَاءِ مُطَهَّرُ**
  وَرُدَّتْ جُيُوشُ الْفِيلِ عَنْ دَارِ قَوْمِهِ / / / فَمِنْهُ نَصْلٌ قَبْلَ مَا سُلَّ يَنْصُرُ

في هذه الأبيات يتحدث الشاعر عن قصة الذبيحين، وهما نبي الله إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو جد الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم الذي افتداه الله رب العالمين بكبش عظيم، والذبيح الآخر هو والد الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- عبد الله بن عبد المطلب، ثم يقول إنّ الله تعالى قد رد جيوش أبرهة الحبشي والفيلة التي جاءت معه عن الكعبة الشريفة في السنة التي ولد فيها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فكأن الله تعالى نصر سيف سيدنا محمد على المشركين قبل أن يُسلّ هذا السيف عليهم فعلًا.

- **ونظّمت شعري فيك تزهى قصيدةٌ / / / على كلِّ ذي بيتٍ من الشعر يعمرُ**
  معظّمة المعنى يكرَّر لفظها / / / فيحلو نباتيّ الكلام المكرَّرُ
  دنت من صفات الفضل منك وإنها / / / لتفضل ما قالته طيٌّ وبحترُ

في آخر أبيات هذه القصيدة يتحدث الشاعر كيف أنّه كتب الأشعار في هذه القصيدة في مديح الحبيب المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، وكيف أنّ كل بيت من هذه القصيدة يفوق ويعلو كل أبيات الشعر التي كُتبت؛ لأنّه في مديح خير البشر عليه الصلاة والسلام، وكيف أنّه صاغ أبيات هذه القصيدة بمعنى عظيم، وكيف أنّ هذه القصيدة استطاعت أن تدنو من صفات الفضل التي يملكها الرسول الكريم، لتكون أفضل من الأبيات الشعرية التي كتبها العرب في طي وبحتر في مديح الرسول عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم.